

مَلامح البطولة والقيم الإنسانية في السيرة الشعبية (تغريبة بني هلال)

مسردية "غنائية الحب والدم" لعز الدين جلاوي أنموذجا

سامية غشّير¹

أستاذ محاضر – أ –

حسيبة بن بوعلي – الشلف –

samiaghechir@gmail.com

د/ حسن عبد العليم يوسف²

جامعة قناة السويس – مصر

Dr_hassan_uoussef@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2024/11/03 ؛ تاريخ القبول: 2024/12/01

ملخص:

من أكثر الفنون انفتاحا على فنّ السيرة الشعبية فنّ المسردية، الذي احتلّ موقعا مهما مؤخرا في المشهد الإبداعيّ، على يد مجموعة من المبدعين اتخذوا التراث الشعبيّ مُعينا بتوصيل مفاهيم عديدة، ورسائل مُختلفة رغبة منهم في ربط الحاضر بالماضي، وتشجيع الأجيال الناشئة

على السير على نهج الشخصيات الملهمة التي تركت أثرا إنسانيا خالدا في الوجدان الجمعي.

وانطلاقا مما سبق، تهدف هذه المداخلة إلى إبراز ملامح البطولة، والقيم الإنسانية في مسردية "غنائية الحب والدم" ل "عز الدين جلاوجي"، والتي تزخر بعدد المدلولات العميقة حول الحب، والشرف، والوفاء، والبطولة.

الكلمات المفتاحية: ملامح البطولة، القيم الإنسانية، مسردية غنائية الحب والدم.

1- تمهيد:

لقد انفتح فنّ المسردية على التراث الشعبي من أجل تحقيق تجريبيته من جهة، ومن جهة أخرى للحفاظ على مقومات الأمة، وملاحم هويتها، وأبطالها، ورؤوسها، فالتراث الشعبي هو مستودع لهوية أيّ أمة يخزن هويتها الثقافية، وتجاربها التاريخية، فهو يعدّ رابطا حضاريا يربط ماضي الأمة الثقافي بحاضرها، وجزءا هاما من الحضارة الإنسانية، ودعامة أساسية لرقيتها، وازدهارها، ومن أشكال التراث الشعبي الأكثر توظيفاً نجد فنّ

السيرة الشعبية، الذي يقوم على استدعاء الشخصيات التراثية الفاعلة في الوجدان الجمعي والتي حققت البطولة، وتركت مواقف إنسانية مبهرة، وقيما جليلة، فصارت رموزا ملحمية يضرب بها المثل في كل زمان ومكان، فالسيرة الشعبية هي رصيد حياة، وبطولات، وقيم، ومآثر بارزة في التراث الإنساني التاريخي التليد.

يعدّ الأديب الجزائري "عز الدين جلاوي" واحدا من المبدعين الجزائريين القلائل الذين كتبوا المسردية هذه الأخيرة التي لا تزال لم تنل حظها من الكتابة في وقتنا الحاضر، وسعى إلى إثراء مسردياته بالتراث ومنه التراث الشعبي الذي يفتح على التاريخ المجيد، والشخصيات الخالدة التي صنعت مجد الأمة، وكانت نبراسا مثيرا بالمواقف، والحكم، والبطولات، والقيم "التي ما فتئت تذكرنا بأباطرة وأبطال الأندلس، في

أخذهم المعارك، ونجاحاتهم، وكيفية الاستيلاء والدَّهَاء الخارق وحبّ
السُّلطة، والغدر.[□]

2- مفهوم فنّ السيرة الشعبية:

يشتمل مفهوم السيرة الشعبية على "مجموعة من الأعمال الروائية
الطويلة، ذات سمات فنية متشابهة، وذات أهداف ورؤى فنية متماثلة،
بحيث تكون في مجموعها صنفا أدبيا متميّزا لا يخضع لقوانين العمل
الروائي".[□]، وقد أضحى فنّ السيرة الشعبية من الفنون القائمة بذاتها،
سواء من ناحية حضورها في الأعمال الإبداعية المختلفة، أو في الأعمال
النقدية المعاصرة.

¹- مصطفىاوي عبد القادر- دين الهناني أحمد، التجريب في النص عند عز الدين جلاوي
المسردية أنموذجا، مجلة الناص، تصدر عن كلية الآداب واللغات، جامعة أمّ البواقي،
العدد 03، 2021، المجلد 08، ص486- ص 487.

²- فاروق خورشيد، السير الشعبية العربية، مجلة عالم الفكر، الكويت مج 19، ع2،
2012، ص 249.

3- التفاعل بين فني المسردية والسيرة الشعبية:

من مظاهر التجريب في المسردية الانفتاح على الفنون المختلفة منها السيرة الشعبية، رغبةً من الكاتب في التحليق في العوالم العجائبية التي تفوق الناس العاديين، وترتفع بهم إلى مصاف الآلهة والرموز الأسطوريين، وأيضا الاعتراف من جواهر السير الشعبية التي تركت الأثر البالغ في تاريخ الإنسانية من المواعظ، والقيم، والمواقف الجليلة؛ من أجل تعريف الأجيال الجديدة بمآثر الأبطال، وعظمة صمودهم، ووفائهم، وحبهم، ونصرتهم لشرفهم، ووطنهم قصد ترسيخها في قلوبهم وأذهانهم، والسير على نهجهم المشرق، ف 'لم يشذ المسرح عن ذلك بل لعله الميدان الأكثر انفتاحا

على التجريب، وهو يحتضن بحبة كل الأجناس والفنون في سيفساء عجيبة، لدرجة أنه صار الأكثر صعوبة في تلمس خصائصه الجناسية، وقد توزعت خطابات متعددة متنوعة

حتى ليتها لك بعضها فوق بعض، ويقصي بعضها بعضا، كل يدعي أنه المسرح دون غيره. □

فالحوارية بين فني المسردية والسيرة "داخل السير الشعبية العربية مرتبطة بعلاقة الاحتكاك الثقافي والتمازج الفني بين الأشكال التعبيرية التي دأب عليها المبدع العربي، وهذه الظاهرة أنتجت في ميدان النقد ما يعرف بالتفاعل النصي، ولما تتبعنا الظاهرة في سيرنا الشعبية وجدنا السمة الغالبة على التفاعلات النصية تدرج تحت الصنف الثاني الذي حدده الباحث سعيد يقطين باسم التفاعل النصي العام، فهذه الممارسة الفنية الواعية لجأ إليها مبدع السيرة الشعبية ليؤكد للمتلقي سعة ثقافته من ناحية ومقدرته الفنية على صياغة النص الأدبي في شكله التعبيري. □

يخضر فنّ السيرة الشعبيّة كرافد جماليّ ثقافيّ في مسرحيّات "جلاوي" حيث ينهل مادّته الإبداعية من القضايا الإنسانية الشعبيّة؛ بل

□ عزّ الدين جلاوي، غنائية الحب والدم، دار المُنْتَى، الجزائر، (د.ط)، 2020، ص 108.

⁴ - <https://folkculturebh.org/ar/?issue=20&page=article&id=371>، صالح جديد،

أشكال التعبير في السيرة الذاتية العربية، مجلة أدب شعبي، مجلة علمية فصلية

متخصّصة العدد 20.

ويستمد مادته من محيطها النفسي، والاجتماعي، والثقافي، والسياسي،
والحياة اليومية، ويُحاول كشف هذا الفن للتصريح بالمسكوت عنه،
وكشف المنظومة السياسية الفاسدة، وإجلاء القيم الاجتماعية الزائفة،
وغرس قيم الهوية الثقافية في نفوس القراء.

4- السيرة الشعبية "تغريبة بني هلال":

تتسم السيرة الشعبية بطابع العظمة، والبطولة، والشخصيات
الأسطورية، ويوظفها المبدع عادة من أجل أخذ العبرة والتجارب من
بطولات وأجداد أصحابها. واستحضر "جلاوي" السيرة الهلالية ل "عامر
الزوفري"، فالسيرة الهلالية تجربة شعبية حية استلهمتها كثير من النصوص
الأدبية خاصة الروائية لما حوته من شمائل عظيمة، وأحداث تاريخية،
وانفتاحها على الحب، والخيانة، والحرب، والسلطة. فالكاتب يستحضر
أجواء السيرة الهلالية، وشخصياتها، وتقاليدها طقوس الحياة، وما حوته
من أبعاد ملحمية، وجمالية رمزية "تروي قصة خروج شعب صحراوي
بحثا عن الكلاء، لكنها استمرت قرنا أو يزيد، وخلفت تراثا أدبيا شعبيا
من ملاحم وسير وأشعار وأبطال أسطوريين. وما زالت الذاكرة الشعبية

تحفل بأسماء أبطال التغريبة (أبو زيد الهلالي ويونس ودياب بن غانم) بجانب بطولات نساء رافقن هذه التغريبة (الجازية الشريفة، وعزيرة الهلالية، وخضرة الشريفة والددة أبي زيد، وشقيقته شيحة)، واحتلت فيها المرأة مكانة اجتماعية، وعبرت من خلال الحكاية الشعبية عن حضورها البطولي⁵.

جاءت المسردية متكوّنة من ثمانية مشاهد، واستثمر فيها "جلاوي" شخصيات السيرة "الجازية، خليفة، الشيخ غانم، عامر....)، كما استثمر أيضا أجواء الفضاء التراثي المتميز في بيئة الصحراء، وما يميزها من طبيعة قاسية حيث الحرارة القاسية، والحيوانات، وأشجار النخيل، مؤظفا لغة الشعر الشعبي الملحون التي استطاعت تأدية الرسالة، والتأثير في السامع وسلب لبّه. إنها قصة شعرية خالدة، راسخة في التراث التاريخي العربي، تُداول عبر الأجيال والسنين لما صُغت بمواقف، وعبر لا تُنسى.

⁵ - <https://www.aljazeera.net/culture>، مازن النجار، سيرة شعرية مليونية... ماذا بقي من تغريبة بني هلال؟ موقع الجزيرة، آخر تحديث: 24 / 04 / 2023، 03:50 سا.

يقول الراوي:

"قصه غريبه نسمعوها ذا الليل

مواعظها كثيره بالحجه والدليل

فيها رجولة بطال كبار

فيها مكر المكار

فيها غدر الغدار

فيها دم أحمر قاني

فيها دمع واحزاني."□

5- مفهوم البطل الملحمي:

يقترَّب مفهوم البطولة من فنّ الملحمة الذي يتميَّز بطابع الأسطورة،
والمواقف الجليلة، والقيم العظيمة، فالبطولة تشتمل على صفات ومُميّزات
تفوقُ الأشخاص العاديين، وقد أبرزت العديد من الملاحم، والقصائد،
والروايات، والكتب التراثية صور البطولة، ومفاهيمها، وأدوارها، وما
تتميَّز به من مَواصفات تتعدَّى حدود البشر العاديين، وتصلُّ إلى درجة

⁶ - عزّ الدين جلاوي، غنائية الحب والدم، ص 8- 9.

الألوهية والخوارق البطولة هي غلبة يرتفع بها البطل عن حوله من الناس العاديين ارتفاعا يملأ نفوسهم له إجلالاً وإكباراً.[□]

وقد اتصل مفهوم البطولة في السيرة الشعبية "بمنظومة أخلاقية مثالية بعضها يمثل الجوانب النفسية والسلوكية التي ترتبط بصفة البطولة ذاتها كالشجاعة، والإقدام، والثقة بالنفس، وبعضها الآخر يمثل فقط مفردات النموذج الأخلاقي المرغوب اجتماعيا قياسا على الثقافة المصرية في البيئة الريفية بشكل عام وفي ريف الجنوب المصري بشكل خاص. هذا الارتباط يدفعنا للتأكيد على قصدية الفعل الفني في استلهم تاريخ أبطال العرب والتصرف الفني الواعي المحسوب الذي يمنح المبدع الشعبي فرصة تصوير وتجسيد آماله وتطلعاته وقيمه وسقطاته ونجاحاته في القالب قصصي الطابع مسمى بالسيرة الشعبية.[□]

⁷- شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، 1970، ص09.

□ - ياسر أبو شوالي، الرياضة في السيرة الهلالية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص49.

وكما تَغَنَّتْ عديد المدونات والقصص بالأبطال والمغامرين مثل ملحمة "جلجامش" وإلياذة "هُوميروس"، و"الأوديسا"؛ لأنها "تصفُ أبطالهم وتغنّي بأبجادهم، وتقصّ علينا ألوانا من حياتهم وتاريخهم، وكيف كانوا يعيشون، ويحبّون، ويُحاربون، ويموتون دفاعا عن المثل العليا، والشرف الرفيع".⁹ وقد تَغَنَّى التراث العربيّ أيضا عبر القصص، والسّير، والحكايات بوصف وتصوير الفرسان المغاوير المغامرين، وهذه الأوصاف كانت قريبة من الواقع المعيش، عكس الوصف اليوناني الذي اقترب من عوالم الآلهة، والربوبية.

6- بطولة المرأة:

ركّز فنّ السيرة الشعبية على إبراز بطولة المرأة، وفروسيّتها، وملاحمها الخارقة التي تفوق النساء العاديات، وارتبط الوصف بعالم الملكات والأميرات، للمرأة "دور أساسي لا يقلّ في خطورته عن الرجل، بل إنّ هناك سير شعبية كاملة عقد لواء بطولتها للمرأة كسيرة الأميرة

⁹ - عمر أبو النّصر، تغريبة بني هلال، دار عمر أبو النّصر وشركاه للطباعة والنّشر والتّوزيع والصّحافة، بيروت، لبنان، ط1، 1971، ص 12.

ذات الهمّة"□□. وقد أبرزَ الكاتب ملامحَ بُطوليّة لشخصيّة "الجازيّة" في

سياقات عديدة منها:

"بارك فيك يا بني الرّحمان

لما نجيّتنا من الهوان

اعلنوا فالجميع

الجازيّة من صفوة الفرسان.

يصيح الجميع رافعين أذرعهم وسيوفهم.

– الجازيّة من صفوة الفرسان"□□

لقد قدّم الكاتب لشخصيّة المرأة "الجازيّة" صفات خارقة تتّصل
بالفرسان الذين خُلّدوا في التّاريخ أمثال "عنتر بن شديد"، "امرؤ
القيس"، "المهلهل بن ربيعة"، فهي قد أنقذت أهلها من العُدوان
الخارجيّ، ومن اغتصاب الكرامة والشّرف، فكانت مثلاً ومضرباً يُتداول

¹⁰ - فاروق خورشيد، عالم الأدب الشعبي العجيب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط 1،

1991، ص 28.

¹¹ - عزّ الدّين جلاوي، غنائيّة الحبّ والدّم، ص 58.

بين الرّجال والنّساء، فقوّتها وشجاعتها في ساحة المعركة قد فاقتا كثيرا
من الرّجال.

" يتقدّم عامر بجوار الجازية، كالمهنئ المعترف بالجميل

- وكان للجازية الفضل

اللي خلصتنا مألغل

في غفلة من خوها النّذل.

تقترب منها حجيّة مُعانقة، وهي تقول مركّزة نظرها في الفرسان.

صدق من قال"

"حمدة خير من أحمد

وعيشة خير من عياش □□"

□□ - عزّ الدين جلاوي: غنائية الحبّ والدّم، ص57- ص58.

* خاتمة:

لفنّ السيرة الشعبية حضور كبير جدًا في الأعمال الأدبية المختلفة، لما تحتويه من مواقف وقيم، وبطولات تصل إلى الملحمة، فتوظيف "تغريبة بني هلال" الشهيرة في الأعمال الأدبية أكسبها شهرةً كبيرة، وقراءة متعددة، وتلقيًا نقديًا معتبرا لما تشتمل عليه من صور تجمع بين الفروسية والقوة والبسالة في الجانب الحربي، والإباء والحلم والوفاء والحب وحفظ الشرف.

فالعودة إلى استحضار فنّ السيرة الشعبية مرّده التذكير بمآثر وأجساد من صنعوا تاريخ الأمة المجيد، فأضحوا مثالا يُقتدى به من قبل الأجيال عبر الأزمنة.

*توصيات الدراسة:

- تشجيع الطلبة والباحثين على تناول موضوع السيرة الشعبية، وتوظيفها في الآداب والفنون.
- تأليف معجم أكاديمي يُعنى بأهم السير الشعبية في التراث العربيّ.
- التركيز على إبراز أهمّ المواقف الإنسانية، والجماليات في فنّ السيرة الشعبية.
- الدعوة إلى تناول أهمّ أعلام السيرة الشعبية في الوطن العربيّ في أفلام سينمائية وأعمال تلفزيونية، وتقديم مؤتمرات وندوات بشأنها.

*قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

- 1- عزّ الدين جلاوي، غنائية الحبّ والدم، دار المنتهى، الجزائر، (د. ط)، 2020، ص 108.

أ- المراجع:

- 1- إسماعيل عبد الفتاح: القيم السياسية في الإسلام، الدّر الثقافيّة للنشر، مصر، (د. ط)، 2001.

- 2- عمر أبو النصر، تغريبة بني هلال، دار عمر أبو النصر
وشركاه للطباعة والنشر والتوزيع والصحافة، بيروت، لبنان،
ط1، 1971.
- 3- فاروق خورشيد، عالم الأدب الشعبي العجيب، دار الشروق،
القاهرة، مصر، ط1، 1991.
- 4- فاروق خورشيد، السير الشعبية العربية، مجلة عالم الفكر،
الكويت مج 19، ع2، 2012.
- 5- شوقي ضيف، البطولة في الشعر العربي، دار المعارف،
القاهرة، مصر، ط1، 1970
- 6- محمد حسن عبد الله: الحب في التراث العربي، عالم المعرفة،
الكويت، (د. ط)، 1980.
- 7- مصطفىاوي عبد القادر- دين الهناني أحمد، التجريب في النص عند
عز الدين جلاوي المسردية أنموذجا، مجلة الناص، تصدر عن كلية
الآداب واللغات، جامعة أمّ البواقي، العدد 03، 2021، المجلد 08.

8- ياسر أبو شوالي، الرياضة في السيرة الهلالية، الهيئة العامة لقصور

الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص49.

9-

<https://folkculturebh.org/ar/?issue=20&page=article&id=371>
، صالح جديد، أشكال التعبير في السيرة الذاتية

العربية، مجلة أدب شعبي، مجلة علمية فصلية متخصصة، العدد 20.